الآداب
المجلد:21، العــدد:01، ديسمبر 2021 الصفحات:346 - 363

الصناعة المعجمية عند العرب من الحاجة إلى العادة

The Lexicography of the Arabs from the need for habit

د. يمينة مصطفاي[1]

[1] جامعة البويرة – الجزائر، y.mostfai@univ-bouira.dz

تاريخ الإرسال: 2021/10/11 تاريخ القبول: 2021/12/07 تاريخ النشر: 2021/12/15

ملخص:

إن الاهتمام بصنع المعاجم أمر يتعلق بالمستوى الحضاري لأبناء اللغة، فكثيرا ما تكشف المعاجم عن حضارة أصحابها ودرجة تقدمهم أو تخلفهم، ومقدار ماحقّقوه من تقدم علمي يواكب التطورات الحجيثة في المجال الفكري والعلمي.

وقد لاحت الفكرة المعجمية في الذهن العربي منذ العصر الجاهلي، وإن لم تتجسد في معاجم مدونة كما هو الحال بداية من العصر الغسلامي مع نزول القرآن الكريم، فعرفوا ما يمكن تسميته بالمعجم المنطوق أو الشفوي، ثم طهرت الرسائل اللغوية الإفرادية المتنوعة والشاملة لكل ما يتعلق بحياة العربي في ذلك الوقت، لنصل إلى مرحلة المعجم الكامل بنوعيه العام والمختص.

كلمات مفتاحية: العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، المعجم المنطوق، المعجم المدون، الرسائل اللغوية، المعجم العام، المعجم المختص.

Abstract:

The interest in composing dictionaries is related to the civilized level of language learners, as dictionaries often reveal the civilization of their owners, the degree of their progress or backwardness; and the amount of scientific progress they have achieved that keep pace with recent developments in the intellectual and scientific field.

The lexical idea has appeared in the Arab mind since the pre-Islamic era, although it was not embodied in written dictionaries, as is the case in the beginning of the

المؤلف المراسل: يمينة مصطفاي.

Islamic era with the revelation of the Holy Qur'an, then they knew what could be called a spoken or oral lexicon, then various individual linguistic messages appeared that included everything related to the life of the Arab at that time, to reach the stage of the complete lexicon with its general and specialized types.
Keywords: The pre-Islamic era; the Islamic era; the spoken dictionary; the written dictionary; the glossaries; the general dictionary; the specialized dictionary.

مقدمة:

يتّفق علماء اللّغة في القديم والحديث على تعريف اللغة اعتمادا على الأساس الصّوتي، فجوهر اللغة أصوات، لكن ليست مجرد أصوات، بل هي أصوات مرسلة على شكل مجموعات خاصة تحمل كلّ واحدة منها جزءا من الدّلالة الكلّية التي يريدها المتكلم، وهذه التّجمعات الصّوتية تتمّ وفق نظام مقطعي يشكّل ما يسمّى المفردات اللّغوية التي تعتبر في اللسانيات الحديثة أصغر وحدة لغوية دالّة على معنى.

وقد كان للصّوت نصيبه من الاهتمام والدّراسة قديما وحديثا، فظهر علم الأصوات بشقّيه الثّابت والمتغيّر "الفونيتيك" و"الفونولوجيا"، الأول يهتم بذاتيّة وهويّة الصّوت وجوهره، والثّاني يهتم بتحوّلات وتغيّرات هذا الصّوت في السّياقات المتعدّدة، ووظيفته في هذا البناء العام معتمدا ومؤسّسا بالضّرورة على نتائج الفونيتيك.

ومثلما كان للتركيب نصيبه أيضا من الاهتمام والدراسة فظهر علم التراكيب بشقّيه الثّابت والمتحول "النّحو" و"البلاغة"، الأول يهتم بعلاقات العناصر التركيبية، والثاني يهتم بالصّور الدلالية لهذا التركيب.

كان لحلقة الوصل بينهما، وهي المفردات نصيبها أيضا من الاهتمام والدّراسة من جوانب متعددة نتج عنها علوم مختلفة أهمّها علم الصّرف، علم المفردات، علم الدّلالة، علم اللّغة، وتأليف المعاجم وغيرها.

ولعلنا نتساءل في هذا الصدد، متى بدأ التفكير المعجمي عند العرب، كيف كانت صوره ومراحل تطوره، وهل الفكرة المعجمية عند العرب انطلقت من العادة أم الحاجة؟

هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإجابة عليها من خلال هذا العمل من أجل بيان أهمية المعجم في الحضارة والفكر العربيين.

1-اللّغة العربية وبدايات التفكير المعجمي عند العرب:

لعلّ تأليف المعاجم كان المخزن الحقيقي للغة في مستوياتها المختلفة، وجمع بين طياته مادة هذه الدّراسات وهي المفردات، وجمع أيضا بالإضافة إلى هذه العناصر مختلف العلوم التي ندرسها، كالصّوت والنّحو والتّركيب، والدّلالة، فقد كان تأليف المعاجم عند العرب (قديما) يشكل في بنائه العام النّظرة الكلّية الشّموليّة للّغة، فنجد فيها نصيبا للصّوتيات ونصيبا لعلم الصرف، ونصيبا للنّحو، وللبلاغة، وللفقه، ولعلوم القرآن، والقراءات، وحتّى لمجالات غير لغوية كالجغرافيا والفلك والطّب والنّبات وغيرها.

1.1-اللّغة العربية من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي:

إنّ اللّغة العربية التي نقصدها ليست بأبعد من العصر الجاهلي والإسلامي وما بعدهما إلى يومنا هذا، لأن الحديث عنها يقودنا في الحقيقة إلى الحديث عن تاريخها والضّرب في أعماقها، وهذا ما يحتاج إلى بحث كبير ومختلف المصادر، وإلى لمّ شتات نتائج مختلف الدّراسات التّاريخية حولها، وهو ليس هدفنا من هذا العمل، فله رجالاته وأعلامه، لكنّنا كما ذكرت لن نرجع إلى أبعد من يومنا هذا إلى أكثر من العصر الجاهلي الذي تمثّله لغة العصر الجاهلي، وعصر صدر الإسلام وما بعدهما، لأنّنا أيضا لا نملك زادا وثائقيا يعطينا صورة تلك اللّغة عدا الشّعر الجاهلي (ديوان العرب)، والدّراسات اللّغوية التي ظهرت مع نزول القرآن الكريم وبعده.

1.1.1-المعجم المنطوق في العصر الجاهلي:

إذا تحدّثنا عن **اللّغة العربية في العصر الجاهلي** فإنّنا نجد أنفسنا نتحدّث عن العرب، في ذلك الوقت، " فقد أحسّ العرب جمال لغتهم ورقّتها، فحاولوا السّيطرة عليها ليتّخذوا منها سلاحا بتّارا في عداواتهم وخصوماتهم، فكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها بذلك(...) وصنعوا ما يصنع في الأعراس (...)، لأنه حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد

لمآثرهم، وإشادة لذكرهم".[1]، فقد أدرك العربي قبل الإسلام أنّه لا يملك " مقوّمات بناء حضارة ماديّة مزدهرة كما هو الحال عند الأمم الأخرى، تخلّد وتشهد ببقائهم، فلا مناص إذن من أن يعطي جلّ طاقته واهتمامه للغته، لأنه اكتشف بفطرته أنّها الوسيلة الوحيدة لإبقاء ذكره وتخليد مآثره"، [2] وهذا ما تحقّق فعلا في أرض الواقع .

وحياة العربية في العصر الجاهلي زاخرة بما جعلها مهيّأة لأن تحمل رسالة خاتم العالمين، ولعل أسواق النّقد العربي القديم تبرز لنا الكثير من قواعدهم وقوانينهم في ضبطها وحفظها والذّود عنها، " بل إنّ اللّغة العربية في أواخر العصر الجاهلي ارتقت رقيّا كبيرا، وتطوّرت جميع لهجاتها الّتي تتكلم بها القبائل المختلفة، ونشأت لهجة(لغة)أدبية راقية تأخذ من هذه اللهجات جميعا"[3]، وكأن هذه اللهجات قد توحّدت في لغة واحدة هي لغة القرآن الكريم: اللّسان العربي المبين.

ولقد كانت عناية العرب في الجاهلية بلغتهم ذات صور مختلفة، فقد كانت بالنّسبة لهم محور حياتهم سلما وحربا، ومن مظاهر هذه العناية بالإضافة إلى الأسواق الأدبية–(اللّغوية النقدية)التي كانوا يعقدونها بمثابة نوادي أدبية–"بعث الأطفال إلى مواطن اللّهجات لتصير الفصاحة لهم طبيعة (...)ودفعهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم (...) [بالإضافة] إلى ابتداع القوالب الأدبية المختلفة، التي تحمل وتحمي ألفاظ اللّغة وشعور الشّاعر وجماعته، فما بحور الشّعر وأوزانه المتنوعة ولا قالب الخطبة وما لها من شروط في الشّكل، ولا الحكمة والمثل ذو القصة، سوى محاولات جادّة لحفظ اللّغة لفظا ودلالة."[4]

وكلّ هذا في الحقيقة يمثّل "فكرة معجميّة بارزة للعيان ألحّت على ذهن العربي وإن لم يسمّها"[5]، وكأنّها معاجم منطوقة ولكن ليست على شاكلة المعاجم الحقيقة، وهي على الأقلّ حقّقت وبقوّة الهدف المنشود من المعاجم اللّغوية وهو حفظ اللّغة.

2.1.1. المعجم المدوّن في العصر الإسلامي وما بعده:

جاء الإسلام والقرآن، وزاد الله من تكريم هذه اللّغة بعدما سخّر لها من عباده من يحفظها ويصونها، لتكون أجدر على حمل الرّسالة السّماوية فقد اختارها لتكون لغة كتاب الرّسالة الخاتمة، لما

تملك من خصوصيّات لغويّة تجعلها أقدر على حمل هذه الرسالة وحفظها للنّاس كافّة، "وقد كان نزول القرآن بالعربيّة حدثا هزّ أركان الأرض وأعطى للعرب من السّيادة والسّبق ما لم يعطه شعبا من الشّعوب ولا أمّة من الأمم، حتى صارت الأمم الداخلة في دين الإسلام تتسابق إلى تعلّم العربية، فهي لسان القرآن، ولغة حضارة وتاريخ، ووسيلة فصاحة وبيان ورقيّ اجتماعي"[6]، فاللّغة في عصر صدر الإسلام تكاد تكون امتدادا طبيعيّا من حيث حبّها والتآلف معها، والسّعي والحرص على صونها كما كان الحال في العصر الجاهلي.

وفي العصر الأموي، مع ما تميز به هذا العصر من حبّ وتفاخر وتعصّب للجنس واللّغة والوجود العربيّ، لا نفرق بين اللغة فيه وبينها فيما قبله "سوى حبّ الجاهليين للغتهم، فحرصوا عليها، أمّا بنو أميّة فأجبروا المجتمع على حبّ اللّغة والتعصّب للبدوي منها على حساب الحضري، كما هو حالهم في التعصب لكل ما هو عربيّ خالص"[7].

أما في العصر العباسي فقد "أصبحت اللّغة العربية نظرا للتّطور الذي أصاب المجتمع بحاجة إلى تطوير وتهذيب وتوسيع وضبط، خصوصا بعد أن استقرّ العرب في الأقطار الّتي فتحوها وخالطوا الأعاجم واحتكوا بهم (...)، وكانت اللّغة في هذا الوقت شائعة في البلاد الفارسيّة، وظلّت تنتشر وتمتدّ، فكان من أثر ذلك أن تأثّرت بالمفردات والتراكيب الأعجميّة[8]، "وكانت بذلك اللّغة هي الضّحيّة الأولى لذلك الانفتاح العقلي الاجتماعي اللاّنهائي، فالعجم امتلأت بهم الدواوين والبيوت والشوارع، وهم أصحاب بناء لغويّ تحتيّ—أي لسان غير عربيّ-، مخالف للعربية، فوجد ما أطلق عليه حسين نصار مصطلح " لغة الواسطة" فقد شاعت وانتشرت، وهي محاولة للتّبسيط في اللّغة صوتا ونحوا وصرفا حتى يتمّ التّفاهم بين العنصر العربيّ والعنصر الأعجمي، ولكن هيهات أن تغفل عين المخلصين للدّين واللغة عن هذا"[9].

فبقيت وظلّت اللّغة العربية كما كانت دائما منذ العصر الجاهلي هاجسا وحلما وواقعا وحقيقة تلوح بفكر وعقل ووجدان العربيّ أينما حلّ وارتحل، حتى عند من بلغ مناصب السّلطة والجاه والمال، وكأن اللّغة بالنّسبة له هي التّاج الذي يتربّع على عرش وجوده وكيانه.

من هذا العرض الموجز عن اللّغة العربية بداية من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا نقول، إنّه يكفيها شرفا وفضلا أنّها لغة القرآن الكريم خصّها الله بحمل رسالته دون سائر اللّغات، وقد سخّر الله تعالى من عباده من يحفظ هذا القرآن، وبالتالي يحفظ هذه اللّغة، وحتى قبل نزول القرآن كما رأينا سابقا، لكن مع نزول القرآن أخذ ذلك الحفظ طابعا علميا دقيقا شموليّا، فظهرت علوم العربية المتعدّدة في أحضان القرآن الكريم، بداية من علم القراءات، والتّجويد إلى علم النحو واللّغة وتأليف المعاجم والصّوت إلى علم البلاغة والفقه، إلى غير ذلك من مختلف العلوم اللّغوية وغير اللّغوية، ونخصّ بالذكر ما كان يسمى في بدايته جمع اللغة، ثم تطور شيئا فشيئا عبر مراحل متدرجة ليظهر في صورة واضحة هي صورة المعجم العربي.

2.1.مراحل التّأليف المعجمي:

يعدّ العمل المعجمي من أهمّ الأعمال اللّغوية التي تشهد على جهود علماء العربية والّتي ترمز لمدى صدقهم ووفائهم لها، وقد كان همّ علماء العربية الأوائل حفظ القرآن الكريم، وبالتّالي حفظ لغته في جميع مستوياتها الصّوتية والإفرادية والتركيبيّة. (النّحو والبلاغة) والدّلالية، وقد كانت عملية جمع اللّغة وتشكيل مدوّنة الدّرس والتّقعيد منها هي أولى وأهمّ عمليّة يقومون بها، واتّجهوا إلى جمعها باعتبارها لغة واحدة وإن تعدّدت لهجاتها، مادامت بالنسبة لهم واحدة في القرآن الكريم.

1-2-1- جمع اللغة وظهور الرسائل اللغوية:

إن الحديث عن المعجم العربي يقودنا إلى الحديث عن مراحله وبذوره الأولى، التي يتّفق أغلب اللّغويين أنّها متّصلة مباشرة بالقرآن الكريم، وبالأخصّ بشرح ما استغلق على الفهم من ألفاظه، فظهر ما يسمّى بكتب غريب القرآن، وقد عرض أحمد أمين في كتابه " ضحى الإسلام " مراحل جمع اللغة حتى تأليف المعاجم كالآتي:

المرحلة الأولى:

جمع الكلمات حيثما اتّفق، فالعالم يرحل إلى البادية ليسمع كلمة في المطر ويسمع كلمة في السّيف وأخرى في الزّرع والنّبات... الخ، فيدوّن ذلك كله حسبما سمع من غير ترتيب إلّا ترتيب

السماع[10]، وكان جمع اللّغة متزامنا مع جمع الحديث تقريبا لهذا تأثّر أهل اللّغة بجامعي الحديث في المنهجية والطّريقة والتجريح[11].

وكان علماء اللّغة يرتحلون إلى مصادرهم ويتّصلون بهم في بواديهم للرّواية عنهم، كما كانوا يأخذون عن الأعراب الذين انتقلوا إلى الكوفة والبصرة واتخذوهما وطنا، لكن هؤلاء الأعراب – بصنفيهم – ليسوا دائما ثقات فيما يخبرون به، وقد نبّه الخليل إلى " أنّ النّحارير منهم ربّما أدخلوا على النّاس ما ليس من كلام العرب إرادة اللّبس والتّعنيت"[12].

ولعلّها العملية الأولى في الدّفاع عن اللّغة من اللّحن الّذي كان يهدّدها نتيجة امتزاج الألسن في الحاضرة، فهرع العلماء إلى البادية باعتبارها مصونة من اللحن بسبب ابتعادها عن الاختلاط، فطبيعي جدا أن تصنّف هذه كمرحلة أولى في جمع اللغة وهي فعلا تمثل الحل السّريع لحفظ اللّغة وصونها.

لكنّنا إذا دققنا النّظر فإن اللّحن وصل إلى قرّاء القرآن الكريم، إضافة إلى أن القرآن قد أنزل على سبعة أحرف، فتعددت قراءاته نتيجة تعدّد لهجاته التي كانت من أهم الأسباب التي أدّت إلى ظهور نوع من الألفاظ اصطلح عليه اسم " الغريب" فوجدت في القرآن الكريم كثير من الألفاظ التي استغلق فهمها على العرب أنفسهم، مما أدّى إلى ظهور ما يسمى بـ:كتب الغريب، الّتي تحاول تفسير وشرح المفردات الغامضة في القرآن الكريم، فتوفّر عاملان أساسان أدّيا إلى الاهتمام بلغة القرآن ثم اللّغة عامّة هما: اللّحن (الّذي أدّى إلى سوء الفهم)، والغريب بمعنى عدم فهم دلالة بعض الألفاظ أصلا.

المرحلة الثانية:

جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد(...)، والّذي دعا إلى هذا في اللّغة على ما يظهر – أنّهم رأوا كلمات متقاربة المعنى فأرادوا تحديد معانيها، فدعاهم ذلك إلى جمعها في موضع واحد (...)، وتوجت هذه المرحلة بكتب تؤلّف في الموضوع الواحد، فألّف أبو زيد كتابا في المطر وكتابا في اللّبن، وألّف الأصمعي كتبا كثيرة صغيرة، كلّ كتاب في موضوع، وكتابا في النّخل

والكرم، وكتابا في الشّاء وكتابا في الإبل ...إلخ"[13]، وهي ما يطلق عليه الرّسائل المفردة أو الرّسائل اللّغوية.

لنستخلص من هذا أن المرحلة الأولى في جمع اللغة على طريقة المعجم، تمثّلت أوّلا في كتب غريب القرآن مع عبد الله بن عباس في سؤالات نافع بن الأزرق، (هذه المرحلة الأولى في المعجم وليس لجمع اللغة، فلا يجب الخلط)، بعدها مباشرة توازى التّأليف في غريب القرآن مع الجمع العام والعشوائي للّغة. وقد كان" أبو عمر بن العلاء (ت 145هـ) أول الرحالة إلى منتجعات البادية، استنطق الأعراب وأطال مكوثه واستماعه إليهم[14].

المرحلة الثالثة:

وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة، وأول من فكر في هذا الموضوع في اللغة العربية الخليل بن أحمد – على ما بلغنا – فكر في أن يجمع كل ما عرف من ألفاظ العرب في كتاب مرتب"[15].

لنناقش هذه المرحلة، وهل فعلا هي مرحلة مستقلة بفاصل زمني من حيث البداية على الأقل، لعل بدايتها فعلا مع الخليل لكنها لا تعتبر مرحلة ثالثة لما سيأتي:

إن المرحلة التي اعتبرها أحمد أمين مرحلة أولى قد عرفنا أنها ليست كذلك، بل كتب غريب القرآن هي مرحلة الجمع الأولى، وإن كان يبدو أن هدفها الأساس ليس الجمع بقدر ما هو الشرح وإزالة الغموض وعدم الفهم، ويتواصل التأليف فيه ويتوازى مع جمع اللغة العشوائي، ثم تظهر أيضا في نفس الفترة تقريبا ما سمي بالرسائل اللغوية المفردة، وإن كانت كتب غريب القرآن والحديث تدرج ضمنها، التي اسمرت مع مرحلة المعجم الشامل حتى وقت بعيد جدا، فنجد من العلماء من ألف المعجم الشامل وألف في الرسائل المفردة مثل الخيل للشيباني(ت204هـ)[16]، الأجناس لابن السكيت، [17]الأسماء في اللغة للزمخشري[18]، أسماء النكاح للفيروز آبادي (ت 817هـ)[19]، كتاب الأمكنة والجبال والمياه: هو كالمعجم الجغرافي للزمخشري[20]. وغيرهم وصولا حتى الزبيدي صاحب

آخر معجم يصنف ضمن المعاجم اللغوية القديمة وهو معجم "تاج العروس من جواهر القاموس"، والذي ألف إلى جواره كتاب الإبل ونتاجها وما تصرف منها[21].

إذن نلاحظ أن الرسائل اللغوية قد استمرت جنبا إلى جنب مع المعاجم اللغوية حتى القرن التاسع مع الفيروزآبادي، وبالتالي فهي ليست مرحلة من مراحل الجمع بقدر ما هي صورة من صور الجمع، وهذا ما سنلاحظه من بعد (في الحديث عن الرسائل اللغوية). فقد تم جمع اللغة على صور متعددة، مشكلة في ظاهرها تتابعا مرحليا في التطوير في صورة الجمع وبالتالي في التأليف المعجمي.

يضاف إلى هذا أن أشهر مؤلفي الرسائل الإفرادية عاصروا الخليل وجاءوا بعده كالأصمعي، والأنصاري أبو زيد وغيرهما[22]، وقد كانت الرسائل اللغوية الإفرادية صورة فريدة في حمل وجمع المفردات المرتبطة باللغة، الإنسان، الحياة، والكون عامة، وفي إشارة بسيطة نعرض لأهم موضوعاتها والتي سنحاول التركيز على بعض منها، مما نجد من غرض البحث، وهو بيان بناء هذه الرسائل التي تعتبر أساسا نواة المعجم اللغوي العربي بنوعيه العام والخاص، وسنتبين هذا من تفاصيل الموضوعات المختلفة.

2- الرسائل اللغوية وموضوعاتها:

لقد شملت هذه الرسائل موضوعات متعددة ومتنوعة، وقد حاولت أن أجمع بين المشترك والمتقارب منها، ونجد عند حسين نصار والشرقاوي تصنيفات مختلفة حاولت أن أستخرج منها التصنيف الآتي:

-الكتب المتصلة مباشرة بالقرآن والحديث وككتب غريب القرآن وكتب غريب الحديث وكتب الغريبين وكتب اللغات في القرآن وغير القرآن (لغات القبائل، النوادر).

كتب المباحث الصوتية: الفونيتيك كالهمز والضاد والظاء، والصوت منفردا. والفونولوجيا كالإبدال، الوقف والصوت في السياق.

-كتب المباحث الصرفية والنحوية. كالمصادر والأفعال. والأسماء كالمقصور والممدود والمذكر والمؤنث.

والإفراد والتثنية والجموع.

-كتب فقه اللغة. المعرب. والأضداد. الاشتقاق.

-كتب حول الإنسان والعالم الخارجي. كتب الحيوان وكتب النبات.

-كتب لحن العامة والتصويب اللغوي.

-الكتب متعددة اللغات.

3. الرسائل اللغوية وفكرة المعجم المختص:

وقد عنينا في البداية بعرض الرسائل اللغوية المختلفة في الموضوعات المختلفة لأسباب ستتوضح أكثر من هذا العرض أهمها:

1- بيان اهتمام علماء العربية بمختلف موضوعات الحياة من لغوية وغير لغوية، ولكن الاهتمام كان لغويا في الغالب.

2 – تمثل مادة الرسائل اللغوية الأرضية والمخزون والرصيد الذي اعتمده أصحاب المعاجم المختلفة (على اختلاف أنواعها) كما سنرى إن شاء الله في أعمال لاحقة.

3 – تمثل الرسائل اللغوية مرحلة الجمع الحقيقية -مع وجود عملية الجمع العشوائي-، والأولى للمادة اللغوية التي تم تنظيمها وتبويبها وترتيبها في المعاجم من بعد،

4-إن المعجميين الأوائل قد اعتمدوا في مصادر مادتهم على المشافهة والرحلة إلى البادية، إلا أنه كان لهم رجوع واعتماد كبير على الرسائل اللغوية، ولعل حضور أسماء أصحابها بقوة في أغلبها يؤكد ذلك كالأصمعي، وأبي عمر بن العلاء... وغيرهما، وكان منهم من ألف في الرسائل اللغوية وألف في المعاجم الكبيرة كالزبيدي والقالي وغيرهما.

-وقد اختلف العلماء في اعتبار الرسائل اللغوية ضربا من المعاجم المختصة أو بداية للمعجم المختص في العربية، وبالتحديد المعجم الفني، فيرى فريق منهم أن المعاجم العربية القديمة في الموضوعات المختلفة بداية من الرسائل اللغوية وصولا إلى معاجم المعاني تعتبر من المعاجم العربية القديمة المختصة، حيث يرى إبراهيم مدكور أن: "العربية غنية غناء ملحوظا بمعجماتها المتخصصة،

فكر فيها منذ عهد مبكر، وبدئ بها في العلوم الدينية واللغوية، ثم طبقت فكرتها على العلوم الأخرى من إنسانية وطبيعية ورياضية"، ويتجاوز هذا ليصل إلى القول بأن :"كتب التفسير في أساسها تعد ضربا من هذه المعجمات، وكتب الحديث من صحيح ومسند وشرح لهما لا تخرج عن هذا كثيرا، وفي وسع العربية أن تباهي بما وفر لها من معجمات الأعلام، فلديها منها ثروة لا تكاد تجد لها نظيرا في اللغات الأخرى، وكثيرا ما سميت كتب الطبقات والتراجم، ولكل فرقة ولكل مدرسة ولكل علم طبقاته، مثل طبقات المعتزلة، وطبقات الشافعية، وطبقات النحاة، وطبقات الأطباء، ولا شك في أن علوم الحديث في عنايتها بتاريخ الرجال والكشف عن مدى نزاهتهم وصدقهم في روايتهم هي التي وجهت نحو هذا اللون من التأليف، ولم يقف أمر هذه المعجمات عند الأشخاص بل امتد إلى البلدان والأماكن، وهناك باحثون أولعوا بذلك ولوعا كبيرا وعلى رأسهم ياقوت الحموي (624هـ / 1228م) صاحب "معجم الأدباء و معجم البلدان"[23] فهو لا يقف بالمعاجم المتخصصة عند المصطلحات العلمية المتصلة بعلوم مختلفة بل يتعداها إلى أسماء الأعلام، والبلدان والأماكن. وقبل كل هذا كتب التفسير والحديث، فالاختصاص في مفهومه للمعجم المختص يتضمن المجال المعرفي الذي تنتمي إلى المادة المعجمية دون جوانب المعجم المختص الأخرى من قواعد وأسس وعلى رأسها قضيتي التعريف والحد.

ويوافقه الرأي أيضا الجيلالي حلام حيث يرى أن "المعاجم المختصة قديمة في التأليف العربي، إذ يمكن إرجاع تاريخ ظهورها إلى أواخر القرن الثاني الهجري، مع رسائل الموضوعات مثل رسالة خلف الأحمر (180هـ/في جبال العرب) و"الخيل" للنضر بن شميل (ت204هـ) و"الأضداد" لقطرب (ت 206هـ) إلى أن بلغت درجة من الرقي والاكتمال في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما يتضح ذلك من معجم "مفاتيح العلوم" للخوارزمي الكاتب (ت387هـ) وكتاب "الفهرست" لابن النديم (ت380هـ)[24].

ويرى أحمد العايد أيضا أن المعاجم المختصة وجدت في التراث العربي منذ القرن الثاني للهجرة، ومن هذه المعاجم، أي معاجم المعاني نقتصر على ذكر "مختصر تهذيب الألفاظ لابن السكيت"، والألفاظ الكتابية " للهمداني، و " فقه اللغة " للثعالبي[25].

ويخالفهم الرأي إبراهيم بن مراد، الذي يرى أنه من الخطأ اعتبار الغريب المصنف والمخصص وفقه اللغة (أي معاجم الموضوعات والمعاني) من المعاجم المتخصصة يقول: "وهي في الحقيقة معاجم لغوية عامة، لأنها مشتملة على ألفاظ لغوية عامة وليست مشتملة على المصطلحات، وحتى ما يمكن أن يعد فيها من المصطلحات إنما دوّن فيها باعتباره من ألفاظ اللغة العامة "[26].

4. اللّغة العربية واللغات الأخرى:

لقد تمكنت اللغة العربية من العيش بسلام تام مع اللغات الاخرى ومن وسائل العيش والتواصل مع الآخر ما سمي بالمعاجم ثنائية أو متعددة اللغات.

1.4–المعاجم متعددة اللغات:

من الطريف أن أقدم المعاجم التي تم الكشف عنها هي معاجم ثنائية اللغة أصلها ظروف خاصة، فقد واجه الأشوريون الذين قدموا إلى بابل قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام صعوبة في فهم الرموز السومرية التي كانت تستعمل في بابل، فرأى التلاميذ الأشوريون أن من المفيد إعداد لوائح تشتمل على الكلمات السومرية و مقابلاتها الأشورية[27]، فالمعاجم الثنائية هي الأسبق في الظهور وذلك أن المتكلم لا يحتاج إلى شرح كلمات لغته بل يحتاج إلى معرفة معنى كلمة في لغة غير لغته الأصل، فتتشكل بذلك ما يسمى بالمعاجم الثنائية "ثم يأتي بعد ذلك سبب آخر للتفكير في وضع المعجم الأحادي، أي المعاجم التي تشرح دلالات اللغة القومية لأبنائها و خاصة بالنسبة للاستعمالات النادرة أو الغريبة داخل اللغة القومية[28]، ومعنى هذا أن الوظيفة الأساسية للمعجم كانت في الأصل وظيفة دعت إليها حاجات علمية، وهي إما لبيان مقابل لفظة من لغة بلفظة في لغة أخرى، أو شرح دلالة لفظة في اللغة القومية ولم يكن مبدأ "حفظ اللغة" هو الدافع الأول لعمل ووضع المعاجم[29].

وينفرد حسين نصار في كتابه بذكر نوع من المعاجم، لم نألف رؤيتها ضمن الكتب التي ألفت عن المعجم العربي، وهذا النوع هو المعاجم المتعددة اللغة، والتي ظهرت تقريبا بالتوازي مع المعجمات العربية الصغيرة والكبيرة، فأخذت بعض خصائصها. ولعل سبب ظهورها هو تزاحم لغتين في مكان واحد، وكانت إحدى هاتين اللغتين في الغالب هي اللغة العربية.

هدفها الأول هو الحفاظ على اللغة الثانية بسبب شيوع العربية وانتشارها على ألسنة المتحدثين نتيجة انتشار الإسلام. "وأهم معجم سمعنا عنه في تلك العصور، كتاب بن بهلول (كان حيا في النصف الثني من ق4هـ) للسريانية والعربية[30].

"وأدى انقسام الخلافة العباسية إلى إمارات صغيرة، تغلب على أكثرها الفرس والترك، وخاصة في المشرق إلى محاولة هؤلاء الأمراء إحياء لغاتهم الوطنية، وأثمرت هذه الحركة معاجم عربية فارسية، تذكر اللفظ العربي ومرادفه في الفارسية، وقد سارت هذه المعاجم في السبيل التي سارت فيها المعاجم العربية، (نظام الأبنية، رسائل الموضوعات، النظام الألفبائي). وظهرت أيضا لغة ثالثة تجاور العربية في المعجم، هي اللغة التركية، ألفت كتب تضمها منها: "منتهى الأرب في لغة الترك والعجم والعرب" لأحمد بن محمد بن عريشاه ت(854هـ)، ولغة رابعة هي اللغة القبطية (لغة المصريين) والتي شكلت مع العربية ما سمي بالسلالم، وهي معجمات صغيرة تتخذ سلالم للتدرج في معرفة اللغة، ويضاف إليها ترجمات المعاجم الكبرى كالصحاح وقاموس الفيروز آبادي إلى الفارسية والتركية، لتتوالى المعاجم من هذا النوع وتتدفق عبر العصور بسبب الحاجة إليها، وبسبب الاختلاط والاحتكاك بين الألسنة من جهة "وتعددت لغاتها ما بين فرنسية وألمانية وانجليزية وروسية من الغربيات، وفارسية وتركية من الشرقيات، وعبرية وسريانية من الساميات إلى جانب العربية"، ومن جهة أخرى ضرورة الاطلاع على لغات الغير خاصة في مجال المصطلحات العلمية والتقنية، "خاصة بعد أن انتبه مجمع اللغة العربية بالقاهرة إلى تعريب مصطلحات العلوم والفنون المختلفة، فأخذ يجمع هذه الألفاظ الأجنبية ويطبعها في رسائل صغيرة، ويقول حسين نصار: "ولا تختلف مناهج هذه المعاجم في أغلبها، فهي تندرج تحت فئتين: الأولى ترتب بحسب الألفاظ العربية والأخرى بحسب

ألفاظ اللغة الأجنبية التي تعالجها، فإذا كان الترتيب معقودا للعربية وجد مذهبان: مذهب المواد ومذهب الألفاظ، أما الأول فيورد المادة وتحتها مشتقاتها ويذكر مرادف كل مشتق، وأما الثاني فيورد كل لفظ بحسب صورته ثم يذكر مرادفه الغربي، ولا يبالي أن تتفرق الألفاظ المشتقة من مادة واحدة. وأما الفئة الثانية فاحتضنت بطبيعة الحال المعاجم الغريبة الخالصة، وهو اعتبار صورة الألفاظ، ثم تذكر المرادفات العربية، وفيما عدا هذا الاختلاف يتفق جميعها في مظاهرها وفي أغلبها، فتذكر اللفظ ثم مرادفاته في اللغة الأخرى أو شرحه بعبارة مطولة مع مرادفاته، وقد يذكر مرادفاته في لغته أيضا، والتزمت جميعا التنبيه على بعض أمور فيما تذكره من ألفاظ بالرمز، فترمز إلى كونه مفردا أو جمعا أو مذكرا أو مؤنثا أو اسما أو فعلا أو مصدرا أو صفة فعل، وبعض أمور أخرى تختلف قلة وكثرة من معجم إلى آخر[31].

هذا فيما يتعلق برأي حسين نصار فيها، لكننا نجد في كلام حسن ظاظا توسعة أكثر في هذا النوع من المعاجم، والذي يسميها "المعجم الزوجي" أو " معاجم الترجمة"، ويرى بأن "هذا النوع نجده معروفا في العراق القديم، إذ جاء الساميون من جزيرة العرب في غضون الألف الثالث قبل الميلاد، وأسسوا لهم حضارة ودولة ونظما اجتماعية أخذت معظم عناصرها الأساسية من حضارة السومريين –سكان العراق قبل الساميين– (...) فاضطروا إلى تعلم اللغة الشومرية (...) ووجدوا أنفسهم مضطرين إلى عمل مجاميع لغوية زوجية[32].

فالمعاجم الزوجية أو متعددة اللغات: "هي أقدم الأنواع، والأصل فيها هو إعطاء أداة صالحة للمترجم يجد فيها في مقابل اللفظ الذي لا يفهمه في لغة أجنبية ما يساويه في لغته القومية"[33]. "وهو أمر صعب في كثير من الحالات، وخاصة بالنسبة للغات المختلفة ثقافيا بصورة كبيرة، مما يضطر المعجمي إلى مقابلة اللفظ بعبارة شارحة[34].

"وهذه المعاجم التي سميناها معاجم الترجمة تزداد الحاجة إليها يوما بعد يوم، مع اتساع مجال الاتصال بين شعوب البشر، وضرورة اطلاع كل أمة على علوم الأمم الأخرى وفنونها"[35]، "مما أدى إلى تطورها من معاجم لغوية زوجية إلى ما يطلق عليه معاجم المصطلحات حسب الحاجة، والتي لها

أهمية كبيرة داخل الحقل التخصصي، وعادة ما تكون لها قيمة موسوعية وتساعد على إظهار الاستعمال الدقيق للمصطلح في اللغات المختلفة، ولكن مشكلات هذا النوع كبيرة، من أهمها عدم الاتفاق على المقابل الواحد للمفهوم المعين وإمكانية تفسير المصطلح بأكثر من معنى تبعا للمدرسة المعينة التي تستخدمه"[36].

ولا أحد ينكر أن هذه المشكلات قد ظهرت خصوصا حديثا ولم تكن من قبل.

خاتمة:

بعد هذا العرض لحيثيات الموضوع وما يتعلق به نسجل النتائج الآتية:

نجد بعض العلماء يرجع أسباب عدم معرفة العرب في الجاهلية للتّأليف المعجمي بسبب عدم حاجتهم أوّلا (فلغتهم محفوظة مصونة يذودون عنها كما تذود عنهم)، ولأسباب أخرى " كانتشار الأميّة وعدم استقرارهم.

وعلى فرض الأخذ بهذه الأسباب التي تبدو منطقيّة إلى حد كبير، وعلى رأسها السّبب الأوّل والرّئيس وهو عدم حاجتهم إليه، فإنّنا نقول : إن المعجم يعتبر الصندوق الذي نحفظ فيه أعزّ ما نملك إذا خفنا عليه من الضّياع، وكان صندوقهم في ذلك الوقت هو حافظتهم وذاكرتهم، ولم يكن لهم عليها خوف يضاهي الخوف عليها فيما بعد لأسباب نذكرها في حينها، ويضاف إلى هذا أن العقل العربي لم يبدأ في التّحرك والاشتغال إلا بعد نزول القرآن الكريم الذي حفّز الهمم وحرّك العقول المسترخية (النائمة) لتبدأ بالسّعي إلى الحفاظ على هذه اللّغة في جوّ مختلف عن الجو السّابق، وفي ظروف غير الظّروف السّابقة أيضا، فأعطت هذه العقول بسخاء، وحقّقت نتائج كبيرة يشهد لها العربي وغير العربي، وإن لم تتوّج تلك النتائج بالتّطوير والاستمراريّة المناسبة في وقتنا الراهن.

1- نشأت المعجمية العربية مثلها مثل علوم العرب في أحضان القرآن الكريم. وإن المعجم العربي يبدأ تاريخه عندما واجه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشكلة فهم نص القرآن وخاصة حين يجدون في هذا النص ألفاظا لا يعرفون معانيها، فيسألون عنها.

2- بدأت المعجمية العربية انطلاقا من غريب القرآن ومما لا شك فيه أن كتب غريب القرآن، غريب الحديث وكتب اللغة أيضا، وكل الرسائل اللغوية المفردة في موضوعات مختلفة (لغوية وغير لغوية) تعتبر نواة للمعاجم اللغوية العربية الكبيرة وأخذت حصة كبيرة من مساحتها العامة.

3- إن الرسائل اللغوية المفردة لا تعتبر مرحلة أولى للمعاجم العربية ثم توقف التأليف فيها، بل ظلت مستمرة حتى بعد نضج المعاجم مع الخليل ومن جاء بعده، وهي تختلف فيما بينها من حيث الشمول، حتى قاربت المعاجم العامة، مثل النهاية في غريب الحديث لابن الأثير والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، وكتاب النبات للدينوري وغيرها.

4- لا نستطيع أن نطلق على الرسائل اللغوية مصطلح معجم لعدة أسباب:

أ- يختلف هدف الرسائل اللغوية عن المعاجم فالأولى مقتصرة والثانية شاملة.

ب- يختلف منهج الرسائل اللغوية عن المعاجم فالأولى لا منهج لها سوى الجمع والضم والثانية عرفت عدة مناهج وتطورت مع مرور السنوات.

5- تتداخل عناوين الرسائل اللغوية بين اختصاصات مختلفة أولها علوم القرآن، علوم الحديث، علوم اللغة (صوت، صرف، نحو)، علوم الحيوانات والنباتات وغيرها.

6- تمثل الرسائل اللغوية ما يمكن أن يطلق عليه معاجم الحقل الدلالي.

7- إن الرسائل اللغوية هي صورة صغيرة عن المعجم العربي. وهي لا تمثله أصدق تمثيل مهما بلغت سعة وشمولا.

الهوامش والاحالات:

[1] – عبد الرحمان جلال الدين السّيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى، وغيره، دار إحياء الكتب العربية، دط، دت، ص236.

[2] – عبد الرحمان جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية، ص236.

[3] – عزة حسين غراب، المعاجم العربية، رحلة في الجذور، التطور، والهوية، مكتبة نانسي، دط، دمياط،2005، ص13.

[4] – عزة حسين غراب، المعاجم العربية، ص32.

[5] –عزة حسين غراب، المعاجم العربية، ص 33.

[6] – عزة حسين غراب، المعاجم العربية، ص7.

[7] – عزة حسين غراب، المعاجم العربية، ص41 –42.

[8] – مصطفى صادق الرافعي، حضارة العرب، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط3، 1981، ص 285.

[9] – عز حسين غراب، المعاجم العربية، ص 43.

[10] –أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي ط1، بيروت، 2005، ج1، ص448.

[11] –شاكر عبد القادر، المعجمية العربية، التاريخ، التطور، تجديد، صناعة، الصوتيات، (مجلة)، أبحاث الملتقى المغاربي الأول، جامعة سعد دحلب، البليدة، ع3 ،2007، ص25.

[12] ابراهيم بن مراد، (1997)، مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، نقلا عن: العين، ص 51 ،52.

[13] أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج2، ص449.

[14] –عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة، دار المعارف، دط، مصر،1971، ص134.

– [15] أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج2، ص450.

[16] – أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، ط2، دار الغربي الإسلامي، لبنان،1993، ص 101.

[17] – أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم، ص 318.

[18] – أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم، ص 322

[19] – أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم، ص 289.

[20] – جورجي زيدان، تاريخ آداب العرب، ص 48.

[21] – أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم، ص 105.

[22] – عدنان الخطيب، المعجم العربي، مطبعة الترقي دط، دمشق، 1965، ص 37.

[23] ابراهيم مدكور، المعجمات العربية المتخصصة –مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة المصرية العامة للشؤون الأميرية ،1984، ج34، ص 17.

[24] وقائع الندوة العلمية الدولية الثالثة، جمعية المعجمية العربية، تونس 1993، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، ط1، ص55.

[25] لجيلالي حلام، المعجم العربي القديم المختص، وقائع الندوة الدولية الثالثة، أحمد العايد، المعجم العربي المختص ومشكلاته، ص 341.

[26] إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، هامش ص 80.

[27] –علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان، ط1، ناشرون 2003، ص 194.

[28] – حلمي خليل، دراسات في اللغة والمعاجم، دار النهضة العربية، ط1، بيروت ،1998، ص 381.

[29] – حلمي خليل، دراسات في اللغة والمعاجم، ص381.

[30] – حسين نصار، المعجم العربي، ج1، ص 75.

[31] – ينظر: حسين نصار، المعجم العربي، ج1، ص 77 – 78.

[32] – حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص101.

[33] – حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص104.

[34]– أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ط1، عالم الكتب، 1998، ص 41.

[35] – حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، ص 105.

[36] – أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، ص 42.

قائمة المصادر والمراجع

1–أبو الفتح بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، القاهرة، ج3 ،1986.

2–عبده الراجحي، دت، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة، دط، دت.

3–عبد الرحمان جلال الدين السّيوطي، المزهر في علوم اللغة العربية، شرح وتعليق محمد أحمد جاد المولى، وغيره، دار إحياء الكتب العربية دط، دب.دت.

4– إميل يعقوب، المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، دار العلم للملايين، دط، بيروت، دت.

5– مصطفى صادق الرافعي، حضارة العرب، دار الكتاب اللبناني، ط3، لبنان ،1981.

6– أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، ج1،2005.

7– شاكر عبد القادر، الصوتيات، أبحاث الملتقى المغاربي الأول، جامعة سعد دحلب، البليدة، ع3، 2007.

8 –ابراهيم بن مراد، مسائل في المعجم، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت ،1997.

9– عبد الحميد الشلقاني، رواية اللغة، دار المعارف، دط، مصر، 1971.

10– أحمد إقبال الشرقاوي، معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية، دار الغربي الإسلامي، ط2، لبنان،1993.

11– عدنان الخطيب، المعجم العربي، مطبعة الترقي، دط، دمشق ،1965.

12– ابراهيم مدكور، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الهيئة المصرية العامة للشؤون الأميرية، ج34، 1984.

13– علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية و التطبيق، مكتبة لبنان، ناشرون، ط 1،2003.

14– حلمي خليل، دراسات في اللغة والمعاجم، دار النهضة العربية، ط1، بيروت،1998.

15– أحمد مختار عمر، صناعة المعجم الحديث، عالم الكتب، ط1،1998.